الفصل الرابع

الثورة المهدية وحكم السودان

عندما نتحدث عن محمد أحمد (المهدي) نجعل في إعتبارنا انه من بيت فقيه، علمه أبوه الفقيه القراءة والكتابة وهو صبي، ثم واظب بجد ومثابرة علي القراءة، فتتلمذ علي يد شيخوخ كُثر وإتبع الطريقة السمانية، وإرتحل إلى الجزيرة أبا ثم كثير من مناطق السودان وأحبه العامة لورعه والصلاح والتقي، حتي لقب بـ «الزاهد». حيث اصبح الناس يزورونه من جميع البلاد وتهرع إليه، ثم سافر بعد ذلك إلى كردفان حيث الفقهاء و البسطاء، فأصبح يضع رسالته بينهم ويحثهم علي الإيمان والوجوب علي محاربة الحكومة في الظلم والفساد الذي إنتشر بين موظفيها وكثرة الضرائب التي أرهقت كاهل الضعفاء، ووجد قبولاً كثيراً بين الأهالي وكذا الفقهاء الذين لم يجرؤا علي إنتقاد الحكومة، ومن بعدها أصبح كثير من الناس ينضمون إليه، فمنهم «عبدالله بن محمد التعايشي»، وهو من قبيلة البقارة وحاربت أسرته الزبير باشا عند فتحه لدارفور، وله صلات كُثر بقبائل غرب السودان في كردفان، وأصبح يستمع إلى الأهالي الفقراء الساخطين علي الحكومة التي تعين منهم أكثر ظلماً وفساداً لجلب الضرائب، ليس كل الموظفين من الأتراك والمصريين بل من أفسد الأثرياء السودانيين الذين يأخذون بعض من الأموال لصالحهم الشخصي ثم ماتبقي يذهب إلى خزينة الحكومة، والأغرب من ذلك الحكومة تعلم بهذا وتتركهم لحفظ الأمن بل لنشر الرعب والخوف في نفوس الضعفاء، وكان وقتها الجنرال «غوردون»، هو المسئول عن تعين الموظفين، وبهذه الطريقة إنتشر الحقد والتباغض بين الناس وأصبحوا يتسارعون إلى محمد أحمد الذي بدأت دعوته لمحاربة القضاة الظالمين من الموظفين الذي يمثلون حكومة الـ «كفرة»، فإنتهز محمد أحمد هذه الفرصة ـــ «الإستياء» ـــ وعلم أن «الدين» هو العامل الوحيد في

ربط الناس، فأعلن أنه « المهدي المنتظر»، فصارت لـه شخصـية قويـة أكثـر حبـاً وإحتراماً، وبذلك وعدهم بأنه سوف يطرد كل الأوربيـين والأتـراك والمصـريين. ولكن لم يحين الوقت لإعلان الدعوة جهاراً فبات ينشر دعوته سراً لكسب العديـد من المؤيدين والأنصار. فعلم «رؤوف باشا» الحاكم العام للسودان وقتها، (يقـال عن طريق وشاية من أحد شيوخ المهدي القدامي كان مع خلاف كبير معه)، ولكنه لم يبالي، وبعد فترة علمت الحكومة بأمر محمد أحمد وكراهيتـه للحكومـة ونيتـه في تطهير البلاد من الظلم والفساد وطـرد الأجانـب منهـا، فـرأت أنـه خطـراً عليهـا، فأرسل رؤوف باشا، فصيلتين للقبض عليه ووعد كل قائد للفصيل بترقيته إلى رتبة «بكباشي»، حدث ذلك في أغسـطس ١٨٨١، ومـا أن وصـلا القائـدين إلى قـرب القرية و«عشة» محمد أحمد، حتي فتحا النـار بشـدة عـلي بعضـهما الـبعض، فكـل منهما في مواجهة الأخر وفر من تبقي ناجياً بنفسه، ونجح محمد أحمد أشد النجـاح بهذا النصر العظيم من رب العباد، وهرع إليه من يتخوف من قبـل الحكومـة وزاد عدد الأنصار وأصبح الفارس الذي يطـرد العـدو ويجلـب لهـم النصـر والخيـر، وتوالت حملات أخري من قبل الحكومة لرد المهدي وإخضاعة، أوالقبض عليـه، مثل حملة راشد بك حاكم فشودة الـذي قلـل مـن أهميـة المهـدي ولم يهـتم بأخـذ الحيطة، فباغته المهدي وأنصاره فقتلوهم جميعاً. وحملة يوسف الشلالي التي إنتهت بالهزيمة، فما لبث أن شاع أنه المهدي المنتظر صاحب المعجزات وبهذه الطريقـة زاد صيته وتكالب الناس عليه وأصبح الحديث عن الرجل الصالح الذي بعثـه الله لينقذ البلاد من الظلم والجور الواقع علي الأهالي من قبل حكومـة الكفـرة سـارقة خيرات البلاد. وأصبحت الغارات من العرب في المناطق المحيطة بالأبيض تنهال والسرقات تكثر وعلمت الحكومة بضـعف رؤوف باشـا فقـررت إسـتبداله بعبـد القادر باشا حاكماً عاماً علي السودان، فشيع عنه بقوته وحكمته وحماسـته لتصـليح الأوضاع هناك، فعلم المهدي بوصول الحاكم الجديـد إلى الخرطـوم في ١١ مـايو ١٨٨٢، وطلبه مدداً من القاهرة لرد المدن والمناطق التي ألت إلى المهدي بعـدما أضحت الأبيض في يد المهـدي وأنصـاره، وبعـد هـذا الأنتصـار العظـيم أصـبح

المهدي يفكر في زيادة نفوذه وبسط قوته، فعلم بأن الحكومة عازمة علي الهجوم عليه، فكان يدعوا بإلحاح إلى الجهاد ويذكر أتباعه بأن الحرب توشك أن تشب وأنهم منصورون فيها. فبعد كل إنتصار يهرع الناس إلى هذا الرجل الصالح الذي أرسله الله إلى نصرة المظلومين وطرد الأتراك والأوربيين والمصريين وتحرير بلادهم. فكان عبد القادر باشا رجل ذو نظرة بعيدة أي (ترك المهدي وأتباعه)، ثم ينصرف هو وجنوده في إسترداد ما يمكن من مدن، وحصل ما أراد وعادت بعد المدن ولكن هذا لم يحبط من عزيمة المهدي وأتباعه، ونصح عبد القادر باشا أيضا فقال :« أنه لا يوافق علي إرسال تجريدة كبري لتخليص كردفان ولكن أنصح بتوزيع الإمدادات التي تأتي من القاهرة علي مراكز علي النيل بحيث تكون هناك حاميات ثم يترك الثوار وشأنهم مؤقتاً، وأنني لدي ما يكفي لقمع الثورة في الجزيرة بين النيلين الأبيض والأزرق وأمنع تقدم المهديين من الغرب». ويقال أن هذه النصائح إذا عُمل به لتم القضاء علي الثورة المهدية وإنحصرت في كردفان فقط، ولكن ولاة الأمر في القاهرة لم يكونوا من رأي عبد القادر باشا، وكانوا يرون أنه يجب ان تعاد للحكومة كرامتها وسلطتها مهما كلفها ذلك، ودبروا تجريدة يقودها «هكس باشا» الانجليزي ومعه ضباط أوروبيين، وتم إستدعاء عبد القادر باشا إلى القاهرة وقام مقامه «علاء الدين باشا» حاكم عام علي السودان، بعدما كان حاكم علي السودان الشرقي، فعلم المهدي بذلك وإستراح من عبد القادر لما عرف عنه من دهاء، ويقال أن المهدي وأنصاره كانوا يدعون بعد كل صلاة، «اللهم يا قادر أكفينا شرعبد القادر». وبدأت حملة «هكس باشا»،حيث غادر الخرطوم. ولكن غاب علي الحوكمة وهي تثار لكرامتها أن المهدي أصبح الحاكم المطلق علي المديريات الغربية وليس فيها سواه وأنصاره، ولكنهم نسوا أيضاً كيف أباد كل الحملات، ويملك من البنادق والذخيرة أكثر ما يملك «هكس باشا»، وله من الرجال الأقوياء المدربين المهرة، منهم من كان يصيد الفيلة والنعام وغيرها، وهناك أيضاً الذين إنضموا إلى المهدي آلاف من الجنود النظامين وغير النظامين الذين كانوا في خدمة الحكومة قبلاً بعدما وجدوا الضعف والهوان الذي أصاب

الحكومة، والنصر الذي لازم المهدي وأنصاره، وهل خطر علي بال الحكومة بأن الجيش الجرار التي أتت به كان ينوي من فيها الإنضمام إلى المهدي وترك «هكس»، عندما يشاهدون ما أعده المهدي وأنصاره؟؟؟. يقيناً جهلت الحكومة في القاهرة كل ذلك وجازفت بحملة مهولة من آلاف الجنود، وعلم المهدي بقرب قدوم الحملة فأعلن الجهاد بين الناس وأخذ يحثهم عليه ومن يتقاعد يعاقب ومن يطيع فان النعيم ينتظره في الجنة، فخرج هو وبعض الضباط والأمراء من الأبيض وضرب عشته هناك ينتظر قدوم الحملة، ثم أرسل من يضع المنشورات في طريق الحملة يدعوا فيها «هكس» للتسليم حفاظاً علي أرواحهم وتجنب إراقة الدماء فهم بإذن الله منصورون، فلم يجب «هكس» علي هذه المنشورات، فقد علموا أن جنود الحملة قد أعياهم التعب والجوع والعطش وهاجمهم في ذات الوقت من جهة أخري أنصار المهدي الذين صبوا عليهم النار بكثافة، وحدثت عندئذ مجزرة هائلة، ولم يحاول الثبات سوي بعض الضباط الاوروبيين والخيالة والأتراك ولكنهم هُوجموا من كل جانب وقتلوا تقريباً عن آخرهم. ولم يكن بعد كل هذا النصر الذي حالف المهدي وأنصاره إلا أن يتم الإستيلاء علي دارفور، وأرسل في ٢٠ ديسمبر ١٨٨٣، رسالة إلى حاكم دارفور وقتها «سلاطين باشا» يحثه فيها علي التسليم حقناً للدماء وحفاظاً علي أرواح الأبرياء، فما كان منه إلا الإجابة، ويقال أن كل الأوربيون طلب منهم المهدي الدخول إلى الإسلام فأجابوا خوفاً من القتل والتنكيل بهم، ومنهم «سلاطين باشا» الذي أصبح تحت أسر المهدي وخليفته حوالي أربعة عشر عاماً، الذي تحول إسمه إلى «عبد القادر» إلى أن فر إلى القاهرة بعد ذلك. فلم تكن مسألة الإستيلاء علي الخرطوم سوي مسألة وقت، وفي ١٨ فبراير ١٨٨٤ وصل غوردون، وأول ما عمله عند وصوله أذاع منشوراً بتعين المهدي حاكماً علي كردفان!، وإقترح الدخول في مفاوضات مع المهدي، وطلب منه الإفراج عن الأسري وأرسل إليه هدايا من الملابس الثمينة. ثم رد المهدي هداياه مرفق بخطاب محتواه أن يسلم هو الخرطوم ويحقن الدماء وكيف له ان سلم له شيء أخذه هو بالسيف.. وبدأ

حصار الخرطوم والهجوم عليها ولكن غوردون رغم ما لديه من قوة قليلة إستطاع صد الهجمات والصمود في وجههم، ورأي قناصل الدول الأوربية أن الحالة تتفاقم فطلبوا من غوردون أن يرسلهم إلى مكان أمن فرفض وطلب منهم البقاء في الخرطوم، وحدث بالفعل تسليم أمدرمان إلى المهدي في يوم ١٥ يناير ١٨٨٥، فأذن غوردون للجاليات ومن أراد من الأهالي الخروج من الخرطوم، وما أن بدأ صباح يوم ٢٦ يناير ١٨٨٥ حتي سمع الناس أصوات الإبتهاج والسرور بالنصر وتحرير الخرطوم، بعد معركة بدأت بهجوم رجال المهدي من الخلف فكانت مفاجئة للمحاصرين وهنا لم يتمالك المجاهدون عندما دخلوا السراي فقتلوا جميع الحرس، وكان غوردون واقفاً علي السلم المؤدي إلى غرفة الجلوس فقال لهم عندما رأهم :« أين مولاكم المهدي ؟». فلم يجبه أحد، بل تقدم أولهم وطعنه بحربته، فوقع علي السلالم فإخذوا يجرونه ثم قطعوا رأسه وجاؤا بها إلى المهدي، ويقال أن المهدي لم يرغب في قتل غوردون بل أراده حياً للمساومة به والإفراج عن «عرابي باشا»، ليصبحا شركاء في فتح مصر، وطرد العدو. وبذلك أصبح للمهدي سيادة الجزء الأكبر من البلاد وبسط سيطرته عليها، وبدأ في العمل علي توطيد مشوراه وترسيخ دعائم ملكه. ولكن ماهي إلا شهور ومرض المهدي بحمي «التيفويد» مرضاً شديداً، ثم مات بعد صراع مع هذا المرض. وبدأت مرحلة جديدة من الحكم المهدوي في شخص خليفته «الخليفة عبد الله التعايشي»، الذي بدأ في إكمال مشوار المهدية في فتح مصر فأرسل الأمير عبد الرحمن النجومي الذي إمتاز بالشجاعة والقوة والبسالة لفتح مصر وضمها للدولة المهدية، ولكن هُزم في موقعة «توشكا» ، ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ .

استرداد السودان :

ذهب اللورد كتشنر إلى إنجلترا في مايو ١٨٩٦ ليحصل على موافقتها على استكمال حملته على السودان، وتم له ذلك، وفي ٤ سبتمبر ١٨٩٩ دخل كتشنر الخرطوم ورفع العلمين المصري والبريطاني وقامت بريطانيا بإرسال بلاغ إلى

الحكومة المصرية قالت فيه «لبريطانيا حق الإشتراك في حكم السودان بما ضحت من المال والرجال». وفي ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ تم قتل الخليفة عبد الله وأكثر أمراءه وأسر البقية وذلك في معركة «ام دبيكرات». يقال أن «كتشنر» عند إنتصاره نبش قبر المهدي وأخذ هيكله إلى إنجلترا إنتقاماً لمقتل غوردون باشا. وتبدأ صفحة أخري في تاريخ السودان.

obeikan.com